التخريب الهلالي لقلعة بني حماد

مقاربة بين عوامل الازدهار وأسباب التراجع والاندثار

أ/ بوقاعدة البشير
جامعة سطيف

ملخص

لقد سعينا من خلال مقالنا هذا المعنون بالتخريب الهلالي لقلعة بني حماد مقاربة بين عوامل والازدهار وأسباب التراجع والاندثار إلى معالجة إشكالية عوامل تراجع المكانة الحضارية لمدينة القلعة الحمادية أيام انتشار القبائل العربية الهلالية بمنطقة المغرب الأوسط ،وهل كان لموضع القلعة الحصين دور في تجنيب المدينة أعمال التخريب الهلالي التي طالت عمران بعض المدن المغربية على غرار مدينة القيروان أم أن هذه المدينة هي الأخرى تعرض عمرانها للتخريب على الرغم من الحصانة والمنعة الطبيعية التي امتاز به موقعها ؟ ،إضافة إلى إماطة اللثام عن الغموض الذي يكتنف إشكالية تخريب الهلاليين عمران مدينة القلعة من عدمه في ظل ما أشارت إليه الروايات التاريخية وما أوردته النصوص الجغرافية ،هذه الأخيرة التي وقفت على حال أغلب مدن المغرب عقب الفترة التي أصاب الخراب عمران بعضها،خلال القرن الخامس الهجري (11م)، ورصد مصنّفوها مشاهداتهم ،من خلال ما وقفوا عليه من ملاحظات أو ما نقلوه عن غيرهم .

وعليه تطرقنا إلى دراسة بناء حماد بن بلكين مدينة القلعة التي نسبت إلى اسمه ،والذي اختار موضعا مناسبا لبناء مدينته ،تكون بفضله في منأى من أي خطر قد يداهمها ،في الوقت الذي كان إقليم المغرب الأوسط يعرف أوضاعا مضطربة يغذيها الصراع بين أبناء العمومة من أسرة صنهاجة (بنو

زيري وبنو حماد) من جهة ،ومن جهة أخرى الصراع القبلي التقليدي بين قبيلتي صنهاجة (بنو حماد) وقبيلة زناتة هذه الأخيرة خاصة بزعامة فرعيها مغراوة وبني يفرن .

إضافة إلى الحدث التاريخي الهام الذي عرفته منطقة المغرب والمتمثل في الهجرة الهلالية إلى أرضه وما نجم عن ذلك من صراعات وحروب حينما انتشروا بمنطقة المغرب الأوسط أين اصطدموا مع بني حماد ،وما عرفه الإقليم من اضطراب مسّ مختلف جوانب الحياة خصوصا بالنسبة لمدينة القلعة حاضرة الإقليم آنذاك وعاصمة بني حماد ،والتي اضطرّ حينها ملوك بني حماد في خضمّ ذلك الوضع للانتقال إلى عاصمة يكون موضعها بعيدا عن مجالات بني هلال فاهتدوا إلى موضع بجاية ،هذه الأخيرة التي ورثت حضارة مدينة القلعة وأضحت عاصمة بني حماد .

مقدمة :

.....على الرغم من العناية البالغة التي حظيت بها قلعة بني حماد من خلال الدراسات الحديثة التي عنيت بتاريخها إلاّ أنّ المسار التاريخي للمدينة ما يزال الغموض يكتنف الكثير من جوانبه في أغلب فتراته، وذلك يعود بدرجة أكبر إلى كون المصادر المتضمّنة أخبار دولة بني حماد ومن ثمّ مدينة القلعة ضنينة وشحيحة، وهذا عادة ما يكون حجر عثرة أمام أي باحث يروم الحفر في البنى الاجتماعية والنسيج العمراني لهذه المدينة. هذا ويضاف إليــه تشعّب الأحــداث التاريخية التي يعجّ بها تاريخ الدولة الحمادية والتي كان لها تأثير بشكل أو بأخر على الوضــع السيــاسي والاقتصادي وكذا العمراني السائد آنذاك ،والذي كانت مدينة القلعة باعتبارها حاضرة هذه الدولة وعاصمتها الأولى ميدانا لأغلب تلك الأحداث. وقد أخذت هجرة القبائل العربية الهلالية إلى منطقة المغرب الأوسط حيّزا كبيرا في طليعــة

الأحداث التاريخية التي ميّزت تاريخ المدينة ،نظير ما لحق عمرانها جراء تلك الهجرة ،وما نتج عنه وأثّر على مختلف مجالات الحياة ،وكذا مستقبل المدينة .

.....و إن كانت هذه الظاهرة الخاصة بشحّ المادة التاريخية المعاصرة للأحداث والمتعلقة بتاريخ مدينة القلعة بشكل خاص وتاريخ الدولة الحمادية بشكل عام لا تعدّ بحقّ عقبة يستسلم أمامها الباحث ،بل لابدّ أن تكون حافزا للمضي قدما لاستغلال المادة المتوفّرة أحسن استغلال، والبحث والتنقيب عن المصادر الدفينة التي تنير درب الباحث إذا مـــا أحسن استثمار مادتها ،بل أكثر من ذلك ضرورة التحكّم الأمثل في مصادر أخرى مهمة لخدمة الدراسة التاريخية لمـــا ترفل به من مادة غزيرة قد تضارع في بعض الأحيان ما تجود به المصادر التاريخية ،و ذلك عـــلى غرار كتب الجغرافية ،الرحلة، التراجم، النوازل ،والمصادر الأدبية على اختلافها. وبذلك يكون الباحث تجاوز تلك العقبة بل وأثرى المادة التاريخية بنصوص تسعف ذلك الفراغ في بعض حلقات سلسلة الأحداث التاريخية ،حتى تكون في صورة متكاملة .

.....كما نشير بداية إلى أن النشاط العمراني بالمغرب الأوسط مـــع بدايـــة القرن 5هـ/11م لم يأخـــذ وجهـــة الإستراتيجية العمرانية القائمة على أساس التوسّع العمراني وبناء مدن في المناطق الساحلية ؛كسياسة عمرانية مخالفة لما كانت عليه الأمور فيما سبق، ذلك أن مركز ثقل الحياة السياسية بالمغرب الإسلامي أخذ منحى التوجّه نحو الساحل في ظل المتغّيرات السياسية والاقتصادية التي باتت تسود المنطقة . وفي هذا الوقت اتّجه حماد بن بلكين وجهة مغايـــرة لتلك الإستراتيجية، ذلك أن هذا الأخير رأى أن بناء مدينة تجمع بين وظيفتي المدينة الحاضرة والقلعة الحصينة تقتضي إيجاد موضع طبيعي حصين بعيد عن منطقة الساحل، وكفيل بحماية

المدينة من أيّ خطر ،مع ضمان استقرار أوضاعها ،وبذلك فضّل المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الأطلس التلي بمحاذاة الأطلس الصحراوي .

.....وإن كان ابن حماد يسعى من وراء إتباع هذه الإستراتيجية تجنيب مدينة القلعة – التي نسبت إلى اسمه – عواقب الاضطرابات التي يتخبّط فيها الإقليم (المغرب الأوسط) خاصة الصراعات القبلية بين صنهاجـــة وزناتـــة وبين عناصر صنهاجة نفسها ،فإن الاشكالية التي يمكن طرحها هي: هل استطاعت القلعة بحصانتها الطبيعية ومنعتها بما أضافه حماد من تحصينات مجابهة الأخطار الخارجية وفي مقدّمتها زحف القبائل الهلالية عليها؟ وهل حقيقة أقدم بنو هلال علـــى تخريب عمران القلعة ؟ وإن حدث، فما مدى تأثير ذلك على مستقبل المدينة وما مصير عمرانها ؟.

1- موضع البناء الحصين

.....إن الإجابة على الأسئلة التي طرحنها آنفا تقتضي منّا أوّلا الوقوف على ملامح حصانة موقع مدينة القلعـــة، وهو الأمر الذي يستدعي منّا أيضا الرجوع إلى ملامح تكوينات المدينة الإسلامية، والتي تعدّ مدينة القلعة أحـــد نماذجها . وعليه فإنّ ملامحها تتّضح وفق السياسة العمرانية القائمة على أساس إتباع منهج تخطيطي يتخذ من مدينـــة الرسول –صلى الله عليه وسلم- أصلا يتّبع فيما يُبنى من مدن، خصوصا بعد أتساع رقعة الدولـــة الإسلامية شرقـــا وغربا، كما أن بناء هذه المدن وتعميرها كان يتطلب مراعاة شروط عند بنائها، وقد كان للعامل الجغرافي الـــدور الرئيس ضمن تلك الشروط، والمتمثل في حصانة الموقع ومناعته[1] .

.....و لو رجعنا إلى المصادر التاريخية – على قلتها – لوجدنا أن النوع العمراني السائد بمنطقـــة المغرب عمومـــا والأوسط منه بشكل خاص في الفترة التي أعقبت الفتح الإسلامي هو النمط المتكون في أغلبه مـــن المدن الحصون[2]، والتي لم يغفل أصحابها عن شرط الموقع الحصين . ومع

ذلك نجد أن هناك مدنا بنيت في ظروف معينة وكانت في بسيط من الأرض سواء في منطقة المغرب الأوسط على غرار مدينة المسيلة ،أو الأدنى كالقيروان[3]، هذه الأخيرة التي نال موقعها نقدا من طرف المؤرخ ابن خلدون، الذي انتقد السياسة العمرانية العربية الرامية إلى استحداث مدن دون مراعاة الشروط الأساسية عند اختيار مواضعها . ولا بأس أن نورد نصه كما جاء على لسانه إذ يقول : "كما فعلـــه العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وإفريقية فإنهم لـــم يراعــوا الماء ولا المزارع ولا الحـــطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان ...ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لمّا لم تراعى فيها الأمور الطبيعية " [4].

.....و نبقى مع ابن خلدون الذي سعى إلى إبراز دور الحصانة الطبيعية للموضع [5] في بناء المـــدن حينما يقـــول: "و متى كانت القبائل والعصائب متوطّنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير وكانت متوعّرة المسالك على مـــن يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها "[6].

.....و بالرجوع إلى مدينة القلعة التي بناها حماد بن بلكين نجد أن هذا الأخير لم يغفل عـــن هذا الشرط الهام عنـــد اختيار موضع بناء مدينته ،التي سعى لأن تكون في منأى عن الأخطار الخارجية التي قد تداهمها،خصوصا عندما أدرك أن موقع مدينة أشير لا يعوّل عليه كقاعدة عسكرية في خضمّ الاضطرابات التي تعرفها المنطقة وما يتخللها من حروب وصراعات .كما كانت هزيمة حماد [7] أمام زيري بن عطية المغراوي سنة 389هـــ/998 م دافعا حفّزه للبحث عـــن موضع أكثر حصانة من مدينة أشير من جهة، ولتعزيز موقع هذه الأخيرة من جهة أخرى، وذلك ضدّ قبيلة زناتـــة، في الوقت الذي رأى أيضا أن موضع مدينة المسيلة هو الأخر لا

يفي بالغرض نفسه، ذلك أن موقعهـــا لا يرقى إلى مكانة القاعدة العسكرية الصامدة في وجه زناتة وفي مقدّمتها فرعها مغراوة [8].

.....وعليه فقد اختار حماد موضعا لبناء القلعة راعى فيه جانب الحصانة الطبيعية بما يكفل حمايـــة المدينة مـــن العدو القادم من الغرب وهو قبيلة زناتة، ومن الشرق بني عمومته من بني زيري ،فاتخذ موضعا في جبـــل عجيسة البرنسية من جبال كيانة ،المطلة على سهول الحضنة في قمة حصن تاقربوست[9]. ولم يكتف حمـــاد بالحصانة الطبيعية لموضع مدينة القلعة بل سعى إلى الزيادة في التحصين ؛مـــن خلال إحاطتها بسور من حجارة، يبلغ ارتفاعه المتر أو يزيد[10]، ويستدير هذا السور بجبل كيانة على مسافة سبعة أميال[11] . فكان هذا الموضع النواة الرئيسة لبناء مدينة القلعة[12] سنة **398هـــ/1007–1008م**، حيث عرفت توسّعا كبيرا في فترة لاحقة[13].

.....و يشير الإدريسي أن هذا الموقع في منأى عن الأخطار ؛ ذلك أنه " في سند جبل سامي العلـــو صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع الجبل "[14]، ويضيف إلى ذلك ابن الأثير قائلا أنها : " من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام، على رأس جبل شاهق، يكاد الطرف لا يحققها لعلوها "[15].

2–مدينة القلعة قبل الانتشار الهلالي بمنطقة المغرب الأوسط :

.....إن الحديث عن حاضرة بني حماد وعاصمتهم الأولى قرين بشخصية حماد بن بلكين واضع أسسها، ومؤسس دولتها ،و الذي ما إن أُوكلت إليه مهمّة تسيير شؤون المغرب الأوسط، وعظُم عناؤه في هـــذه المهمة حـــتى خاض حروبا عديدة ضد قبيلة زناتة التي أثخن جراحها بتوالي انتصاراته عليها، فكان ذلك حافزا كبيرا ودافعا أقوى لنمـــو وتزايد طموحه السياسي والعسكري، ورغبته في توسيع أملاكه، وتقويّة نفوذه وسلطانه، وهو ما دعاه للعمل من أجل الاستئثار بإدارة شؤون المغرب الأوسط وما يفتحه ممّا

يليه غربا، فأعلن استقلاله السياسي وكذا المذهبي عن السلطة الزيرية صاحبة السلطان في ذلك الإقليم إلى ذلك الحين[16] .

.....و هنا لا يفوتنا أن نشير إلى أن السلطة الزيرية وريثة عرش الفاطميين على المغــرب كانت تفتقر إلى نظــام إداري كفيل بإحكام السيطرة على كافة أقاليمها المترامية بمنطقة المغرب ،و نخصّ بالذكر المغرب الأوسط ؛ ذلك أنهـــا كانت تكتفي بإسناد إدارة شؤون الإقليم إلى أفراد تطلق أيديهم في إدارتـــه دون تدعيم سلطانها هناك بجهـــاز إداري محكم توزّع فيه المهام على القائمين على تسييره، مع تزويدهم بالعدّة الكافية كالجيوش، حتى لا تساهم هي نفسها في إيجاد مناخ ملائم لميلاد طموحات تسعى لخلق سلطة موازية للسلطة القائمة، ومُناهضة لهـــا كشأن حماد مـــع أبناء عمومته[17] . بحيث استغلّ هذا الأخير تلك الظروف لإعلان استقلاله بالمغرب الأوسط، بعدما مهّد لذلك ببناء مدينة في موضع حصين يضمن له نجاحه في ذلك الاستقلال .

.....و عليه فقد شرع حماد في بناء مدينته سنة 398هـ/1007–1008م. وبعدما فرغ من ذلك أحاطها بسور من الحجارة يشتمل على ثلاثة أبواب باب الجنان يفضي إلى المسيلة، وهو في جنوبها الغربي، وعلى الجنوب الشرقي باب جراوة على الطريق المؤدّي إلى برج الغدير،إضافة على باب الأقواس في الجهة الشمالية[18] .

.....ثم أعقب عملية بناء القلعة طور هام في تاريخها تمثّل في عملية تعميرها – حتى وإن كان ذلك التعمير شبيه بعملية قصرية – حيث يزوّدنا ابن خلدون بنصّ مفاده أن حماد بن بلكين " نقـــل إليها أهـــل المسيلة وأهل حمزة (البويرة) وخربهما، ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها " [19]. واستمرارًا لعملية التشييد عمل حمـــاد علـــى إقامة المرافـــق الضرورية للحياة في المدينة، وتوسيع عمرانها . إذ يشير ابن خلدون في هذا الصدد أنّ حمادا " شيّد

بنيانها وأسوارها واستكثر فيها من المساجد، والفنادق، فاستبحرت في العمارة[20] واتسعت في التمدن"[21] .

.....و استمرّت مدينة القلعة في النمو والتطور، حيث أخذ مسارها التطوري عدة مراحل بداية بالقلعة العسكرية الحصينة العاتية،فالمدينة الواسعة، لتغدو عاصمة الحماديين وحاضرة دولتهم[22]. ويفيدنا الجغرافي البكري حول التطور الهام الذي عرفته هذه القلعة خصوصا بعد الخراب الذي تعرضت له مدينة القيروان حاضرة المغرب الأدنى لردح مـــن الزمن إثر الهجرة الهلالية إلى المنطقة حيث يذكر بأنه " انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحلّ الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب "[23].

.....وبما أنّ مدينة القلعة غدت المكان الآمن فقد أصبحت قِبلة العناصر البشرية التي وفدت إليها من كل مكان، من بلاد المشرق أو المغرب . وقد ساهم ذلك في نمو مجتمع المدينة، نتيجة ازدياد الشرائح البشرية المكونة له، كما ساهم في توسع عمرانها [24]. وعلى هذا الأساس أخذت مدينة القلعة بنموها وتطورها مكانة القيروان كحاضرة تستقطب السكان وتجذبهم، حتى أصبحت المدينة كما يصفها الإدريسي " من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا، وأحسنها قصورا ومساكنا "[25]. ويضيف ابن خلدون "و رحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد، طلاب العلم وأرباب الصنائع، لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها "[26].

.....و نتيجة لهذا التطور العمراني السريع، والتوافد الكبير للعناصر البشرية إلى المدينة مـــن تجار وأصحاب رؤوس الأموال والحرف، والعلماء وطلاب العلم، عرف اقتصادها نموا كبيرا في مختلف مجالاته، إذ عرفت التجارة رواجا كبيرا، وهو ما يشير إليه الجغرافي الإدريسي بقوله :" وأعمرها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيصة، ولحومها طيبة وسمينة وفلاحتها

إذا أكثرت أغنت، وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة"[27].

.....كما عرفت الحياة العلمية هي الأخرى انتعاشا كبيرا في ظل الرخاء الاقتصادي الذي عرفته المدينة، والنخبـــة العلمية التي قصدتها، هذه الأخيرة التي ساهمت في إثراء الحياة العلمية بشكل ملحوظ، حيث انتفع سكان القلعة بالعلم والمعرفة من أولئك العلماء القادمين إليها بمختلف العلوم[28] .

.....ومنه يمكننا القول أن مدينة القلعة قد عرفت ازدهـــارا كبيرا في المجال الاقتصادي والثقافي، وإستبحرت في العمارة ما أهّلها لتكون حاضرة بني حماد وعاصمتهم الحصينة حتى النصف الثاني مـــن القرن الخامس الهجري (11م) ،أين اضطرّ ملوك بني حماد إلى تغيير عاصمة دولتهم بإيجاد موضع بديل لبناء عاصمة جديدة للدولة، فكانت بجاية هي العاصمة الثانية لهذه الدولة. ولقد تزامن هذا الانتقال مع هجرة القبائل الهلالية إلى أرض المغـــرب الأوسط، الذيـــن خاضوا حروبا ضد بني حماد . فهل كان لهذه الهجرة دور في اتخاذ الحماديين عاصمة بديلة عن القلعة ؟ وما تأثير هذه الهجرة على حاضرة بني حماد وعاصمتهم الأولى؟.

3- مظاهر الصراع الهلالي الحمادي :

.....أثارت الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب جدلا كبيرا بين المؤرخين حـــول مـــا خلّفته من أضرار علـــى البنية الحضارية للمغرب، وما نجم عنها من خراب لمدنه وذلك بين مُبالغ في وصف ذلك الخراب، مضفيا علـــى الهجرة طابع السلبية لا غير[29] ،و بين من سعى إلى إبراز دورها الايجابي على بلاد المغرب علـــى الرغم مـــن سلوك الهلالين سياسة تخريبية في بعض المدن التي دخلوها- على غرار القيروان - لكنها لم تكن بتلك الحـــدة، التي وصفها بعـــض المؤرخين[30]. وبين هذا وذاك سنسعى من

خلال ما بين أيدينا من نصوص لإماطة اللثام عن أثار هذه الهجرة علـــى منطقة المغرب الأوسط ونخص بالذكر مدينة القلعة .

.....لمّا دانت أغلب مدن المغرب الأدنى للسيطرة الهلالية واصلت هذه القبائل السير إلى بلاد المغرب الأوسط، ما جعلهم يصطدمون بدولة بني حماد، وهو ما جعل الحماديين يشنّون حربا لا هوادة فيها عليهم حينما أوعزوا لزناتة بمدافعة العرب الهلالية، بيد أن زناتة عجزت عن مدافعتهم [31]، فقام بنو حماد بعقد اتفــاق مــع الهلاليين يقــضي باحتفاظهم بالمدن وترك الأرياف لبني هلال[32].

.....و بهذا فقد بسط الهلاليون أيديهم على أرياف المغرب الأوسط دون أن يقدموا علـــى أعــمال نهب وإفساد وتخريب شبيه بما أحدثوه أيام سيطرتهم على أحواز القيروان وأرباضها . بل أكثر من ذلك نجد الأمير الحمادي بلكين بن محمد بن حماد (447–454هـ/1055–1062م) يستعين بالقبائل الهلالية في حربه ضد زناتة سنة 450هـ/58–1059م وكان النصر حليفه[33].

.....وهنا أعتقد أن الأمير الحمادي نجح في استمالة القبائل الهلالية إلى صفّه محاولا الاستفادة من خدماتهم خصوصا في ظل الصراع التقليدي بين قبيلتي صنهاجة وزناتة. بيد أن ذلك التحالف قــد انهار مع نهاية العقد السادس مــن القرن 5هـ/11م، واشتداد الصراع بين بني هلال والحماديين[34].

-موقعة سبيبة (457هـ/1065م) :

.....على الرغم من أن طرفّي الصراع في هذه الموقعة كان بنو زيري وبنو حماد إلا أن الدور البارز فيهــا لعبتــه القبائل الهلالية بتحالف بطونها مع الطرفين بعد انقسامهم بينهما في ذلك، حيث تحالفت الأثبج وعدي مع الناصر بن علناس (454–481هـ/1062–1088 م) من بني حماد، في حين

تحالفت زغبة ورياح وسليم مـــع تميم بـــن المعز الزيري (454-501هـــ/1062-1108م)[35]، ثم كان التحالف السري بين هذه القبائل العربية الهلالية المتحالفة مع الطرفين على نصرة تميم بن المعز على ابن عمه الناصر الحمادي[36]. وبهذا يمكننا القول أنّ بني هلال قد حسموا نتيجة المعركة قبل وقوعها.

.....و إذا رجعنا إلى أسباب موقعة سبيبة فهي تُعزى إلى ذلك الإرث المتوارث بين أبناء العمومة مـــن أسرة صنهاجة والمجسّد في تلك الضغائن والأحقاد منذ أن فسدت العلاقة بين حماد وباديس بـــن المنصور (386-406هـــ/996-1016م)، ودخول الدولتين في صراع دائم[37]، حتى دخول العرب الهلالية أرض المغرب . عندها تسابق أبناء العمومة لاتخاذ هذه القبائل أحلافا ونصيرا لكل منهما على خصمه . فابن خلدون يشير إلى أن السبب الرئيس في هـــذه الموقعة هو تدخّل الناصر بن علناس في شؤون الدولة الزيرية بواسطة العرب الهلالية في كل من القيروان وتونس ،خاصة بعـــد انقسام الهلاليين فيما بينهم عندما طلبت الأثبج يد المساعدة من الناصر على حرب رياح وزغبة فأجابها إلى ذلك[38].

.....غير أن هناك رأيا آخر يتصدّره كل من ابن الأثير والنويري اللذان يحصران سبب الموقعة في ذلك الصراع القديم بين حماد وابن أخيه باديس المتنافسان على الإنفراد بحكم صنهاجة، ومـــع استمرار ذلك الصراع حتى عهد الناصر بن علناس من خلفاء حماد وتميم بن المعز من أبناء باديس وصل إلى مسامع هـــذا الأخير أن الناصـــر يذمّه في مجلسه، بل وأكثر من ذلك عازم على المسير إلى المهدية لاقتحامها بعد أن تحالف مع زناتة وبني هـــلال للمعونة في حصارها[39].

.....وفي الوقت الذي أدرك تميم ما يدور في بلاط حكم بني حماد سارع في طلب أمراء بـــني ريـــاح ورغّبهم في التحالف معه فوافقوه على

ضرب الناصر ،كما راسلوا قومهم من بني هلال وقبّحوا لهم أمــر مساعدته فأجابوهم إلى ذلك نظير ثلث الغنيمة[40]. ومن جهة أخرى تحالف تميم بن المعز مع المعز بن زيري بن عطية المغراوي زعيم زناتـــة وحليف الناصر بن علناس وذلك أيضا على ثلث الغنيمة مقابل الانهزام حينما يلتحم القتال في قلب المعركة[41].

.....و هكذا حشد كل طرف قواته استعدادا للمعركة، حيث خرج الناصر بـــن علناس في قواته إلى تميم والتقـــى الجمعان بموضع سبيبة سنة 457هـــ/1065م ،و سارت الأمور كمـــا خُطط له حسب الاتفاق والتحالفات المبرمـــة فكانت النتيجة انهزام الناصر شرّ هزيمة، حيث قتل من أصحابه خلق كثير، ونهبت أمواله ومضاربه، كما أشار إليه المؤرخ ابن عذاري [42].

.....و الحاصل أن القبائل الهلالية أدركت سوء العلاقة بين تميم بن المعز والناصر، وطموح هذا الأخير لتوسيع مملكته على حساب ملك بني زيري عندئذ استغلت تلك الظروف لضرب الدولة الحمادية ذات النفوذ والقوة المتزايدة في ظل الضعف الذي تعرفه الدولة الزيرية بعد الذي حلّ بها جرّاء الانتشار العربي الهلالي بالمنطقة،و ما خلّفه مـــن خـــراب لعمرانها [43] .

ما أن القبائل الهلالية أدركت أن ضمان استقرارها بهذه البلاد، وقوة نفوذها منوط بضعف السلطة الحمادية . وعليه فانهزام الناصر بن علناس في حربه ضد تميم فرصة لتحقيق مـــا تصبو إليه، وهـــو ما سعت إليـــه بالتحالف ضد الناصر وكسر شوكته . هذا دون أن نغفل عن الدور الذي لعبته القبائل الزناتية هي الأخرى في هزيمة الناصر في هذه الموقعة[44].

4-التخريب الهلالي لمدينة القلعة :

.....لقد كان لهزيمة الناصر بن علناس في موقعة سبيبة نتائج خطيرة على دولة بني حماد ؛ سواء بالنظر إلى الخسائر البشرية، أو بما أعقبها من أضرار بعمران المدن على غرار مدينة القلعة[45]. فبالنظر إلى عدد القتلى

كما توردە المصادر التاريخية فإنه عدد كبير ينمّ عن القضاء المبرم على جيش الناصر في هذه الموقعة . وإذا كان ابن عذاري لا يحدّد رقما لعدد القتلى بل يكتفي بقوله : وفي سنة 457 هـ كسر عسكر الناصر بن حماد "و قتل من أصحابه خلق كبير "[46] ،فإن ابن الأثير والنويري يشيران إلى أن أربعة وعشرين ألفا هي حصيلة عدد القتلى في هذه الموقعة [47] . أمّا من نجا فكان الناصر مع عشرة من فرسانه الذين فرّوا إلى قسنطينة ثم القلعة[48].

ذا ويضاف أليه أن العرب الهلالية نهبت معسكر الناصر بما حوى من مال وسلاح ودواب[49]. وهنا يلفت انتباهنا ابن الأثير إلى نقطة مهمّة بخصوص القبائل الهلالية وهي سوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي لهذه القبائل التي كانت تعيش حالة فقر وضيق الحال، وقلة الدواب[50]، وهو ما شجّعها على التحالف مع تميم رغبة في الغنائم والأسلاب التي يضفرون بها عقب النصر . ولم يكن تحالفها مع تميم لنصرة هذا الأخير على الناصر لكبح جماح الناصر في التوسع على حساب ملك تميم فحسب.

.....غير أن ما تجدر الإشارة إليه أن القبائل الهلالية على الرغم من أنها نالت مبتغاها من وراء ذلك التحالف ضد الناصر بعدما تمكّنوا من كسر شوكته، ونهب معسكره -كما سبق ذكره - إلاّ أنها ما اكتفت بذلك بل أعقبته بملاحقة الناصر إثر هزيمته ولجوئه إلى قلعته، أين ضيّقوا عليها، وأحكموا حصارها [51].

.....و في ظل العوز إلى المادة الخبرية المتعلقة بما حلّ بعمران مدينة القلعة[52] يفيدنا ابن خلدون بنصّ مفاده أن المدينة تعرضت إلى التخريب من طرف القبائل الهلالية بعد ملاحقة الناصر ومحاصرته في المدينة، إذ يذكر أنه " نجا إلى قسطنطينة (قسنطينة) ورياح في أتباعه، ثم لحق بالقلعة فنازلوها، وخربوا جنباتها، وأحبطوا عروشها وأظهروا في الأرض الفساد"[53]. وبذلك تكون القبائل الهلالية قد مدّت يدها لتخريب العمران على

الرغم من أنها ليست طرفا في الصراع بل حليفة تميم، ولم تكتف بالأسلاب والغنائم التي حازتها، والعساكر الحمادية التي أبادتها ،بل تطاولت على حرمة عمران القلعة بما طالها من تخريب لجنباتها، ومن تضييق على أرباضها [54]. وفي هذا إشارة إلى أن هــذه القبائل العربية كانت تسعى من وراء ذلك لإضعاف ملك بني حماد، وتوسيع مجال سيطرتها ،وضمـــان استقرارهـــا ،وكذا تحسين أحوالها الاقتصادية والاجتماعية حينما وسعها ذلك بتحالفها مع تميم بن المعز الذي استمالها لنصرته .

.....وممّا لا يفوتنا الإشارة إليه أن هذا التخريب اقتصر على جنبات القلعة وهو ما ينمّ عن عجز هذه القبائل عن اقتحام المدينة ودخولها نظرا لحصانة المدينة بموقعها الصعب الارتقاء، السامي العلو، في سند الجبل[55] . ومنه جنّبها هذا الموقع الحصين أعمال التخريب عكس مدينة القيروان بالمغرب الأدنى التي طالها التخريب حينما دخلتها القبائــل الهلالية[56]، ذلك أنها تقع في بسيط من الأرض، وتفتقر للأسوار الحصينة، التي قد تدفع عنها الخطر إذا ما عجزت الجيوش عن مدافعته خارج تلك الأسوار.

.....و عقب التخريب الهلالي لجنبات القلعة انتشر الهلاليون في أغلب مناطق المغرب الأوسط، وأضحى تقريبا مجالا مطلقا لسلطانها لا ينازعها فيه منازع، فأقدمت حينها على تخريب المزارع والقرى، وقطع السابلة، والعيث فسادا بضواحي القلعة[57]. فكانت تلك الهزة الأولى التي تتعرض لها قلعة بني حماد في ظل الانتشار الهلالي بالمنطقة في عهد الناصر بن علناس الحمادي .

.....ومن خلال تقصّينا للأحداث التاريخية التي عرفتها القلعة عقب ذلك التخريب بناءً على ما بين أيدينا من نصوص لم نقف على أي نص تاريخي يشير إلى أن مدينة القلعة قد طالتها أعمال تخريب من طرف بني هلال في عهد خلفــاء الناصر على الرغم من انتقالهم إلى العاصمة الحمادية

الجديدة مدينة بجاية الساحلية [58] التي بناها الناصر، حتى تولّـــى الأمير الحمادي الثامن العزيز بن المنصور (500–515هـ/1106–1121م) أمور الدولة الحمادية ،و الذي تتعرّض في عهده القلعة لغارة هلالية كان من نتائجها تخريب عمران المدينة [59]. وعلى الرغم من أن فترة حكم هـــذا الأخـــير عرفت الأمن والاستقرار في أغلب فتراتها، وذلك بعدما عمل العزيز بن المنصور على نبذ الصراع مع زناتة، وكذا بين عناصر الأسرة الصنهاجية نفسها [60]، إلاّ أن مقام العزيز بالعاصمة بجاية لم يكفل حماية العاصمة الأولى مـــن أي خطر قد يداهمها، وهو ما حصل حينما هاجمتها القبائل الهلالية، والذي نورده على لسان ابن خلدون القائل أنه في عهد العزيز "كبس العرب في أيامه القلعة وهم غارون، فاكتسحوا جميع ما وجدوه في ظواهرها ،و عظـــم عيثهـــم ،و قاتلتهم الحامية، فغلبوهم، وأخرجوهم من البلد، ثم ارتحل العرب"[61].

......و في ظل غياب سبب مباشر لهذه الغارة نشير إلى أن العرب الهلالية استغلت قلة عناصر الحامية الحمادية المكلفة بحماية المدينة والدفاع عنها، مستفيدة من تفوقها العددي، وهو ما مكّنها من إجبار الحامية على الخروج من المدينة فاسحة المجال أمامها للشروع في أعمال النهب بمدينة القلعة، وتخريب ما وجدوه بظواهرها [62]. وبوصول أنباء هذه الغارة إلى مسامع العزيز ابن المنصور عجّل هذا الأخير بإرسال حملة لنجدة المدينة وأهاليها أسند قيادتها إلى ابنه يحـــي وقائده علي بن حمدون . إلا أنّ هذا الجيش لم يدرك المدينة إلا بعد أن تعرّضت للتخريب والإفساد من طرف القبائل الهلالية، وعليه اكتفى قائد هذه الحملة بتسكين الأحوال، وتأمين العرب، وانكفأ إلى بجاية[63].

......ويثير استغرابنا هنا خروج الجيش الحمادي مـــن بجاية إلى القلعة قاطعا تلك المسافة عقب اكتساح العـــرب الهلالية المدينة وتخريبها،

والذي لم يقم بأيّ ردّ فعل جرّاء ذلك، بل يكتفي بتهدئة الأحوال ،و هـــو مـــا يدفعنـــا للاعتقاد أن مردّ ذلك إلى عجز الجيش الحمادي عن مجابهة العرب الهلالية، حيث أضحى بنو حماد يسعون لاسترضاء شيوخ الهلاليين لتجنب خطرهم، ودرء إفسادهم للزر وع، وقطع السابلة بالمنطقة(64). وفوق ذاك لم نقف علـــى أي خبر يفيد أن الجيش الحمادي عزّز حاميته بالمنطقة، أو استكثر من عددها لصدّ أي غارة هلالية محتملة على المدينة شبيهة بما حصل في سابقتها.

.....أمّا بخصوص تاريخ هذه الغارة الهلالية فإن ابن خلدون الذي أمدّنا بأخبار هامة حول هـــذه الحادثة لم يشر إلى تاريخها، وهو ما دفع الباحثين المحدثين للسعي حثيثا لتحديد تاريخها بعد دراسة النصوص التاريخية المتعلقة بأحداث ذلك التخريب ومقارنتها ببعضها على غرار ما قام به الباحث الفرنسي الهادي روجي إدريس، وكذا المؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي اللذان حدّدا تاريخ تلك الغارة بسنة 512هـــ/1118م(65).

.....و مجمل القول فإن موقع القلعة الحصين في ذلك الموضع الوعر، الصعب الارتقاء لم يجنّبها أعمـــال التخريب الهلالي لعمرانها (لجنباتها) أيام الناصر بن علناس، ثم مع استمرار نشاط الهلاليين في ظل ضعـــف الســـلطة الحمـــادية وعجزها عن مجابهتهم اكتسحت العرب الهلالية مدينة القلعة فدخلتها وخربت بعضا من عمرانها أيّام العزيز بن المنصور الحمادي . وبالموازاة مع ذلك انتشرت القبائل الهلالية بضواحيها، وضيّقت عليها حينما قطعت السابلة، ونهـــب الزروع. فهل ساهم هذا التخريب في تراجع دور المدينة في مختلف مجالات الحياة بها ؟ ،أم استمرّت الحياة بالمدينة على الرغم من تعرّض أجزاء من عمرانها للتخريب؟.

5- آثار التخريب الهلالي لعمران القلعة على مستقبل المدينة :

- في المجال السياسي :

.....لقد كانت مدينة القلعة حاضرة بني حماد إحدى المدن المستفيدة من الوضع الذي آلت إليه دولة بـــني زيري بسبب الخراب الذي ألحقه بنو هلال بعمران مدنها على غرار مدينة القيروان وأرباضها ،ذلـــك أن أغـــلب التجـــار وأصحاب الحرف، ورجال العلم والمعرفة، اضطرّوا للرحيل إلى مدينة القلعة[66] يرومون الأمن والآمان بعيدا عـــن مجال عيث القبائل الهلالية فسادا بإقليم المغرب الأدنى[67]، بيد أن هذه الاستفادة الاثنوغرافية ،و الثقافية التي عرفتهـــا القلعة في ظل المصائب التي حلّت ببني زيري لم يمض عليها أكثر من عقد من الزمن حتى حلّ ببني حماد ما أصاب مدن بني عمومتهم من خراب ومن عيث القبائل الهلالية فسادا في منطقة المغرب الأوسط ،حيث انتشروا فيها ،و أقدمـــوا على تخريب القرى والمزارع والضياع ،كما قطعوا السابلة، وفرضوا الإتاوات على أهاليها[68].

.....و عليه سادت الفوضى والاضطرابات في الإقليم، وتضررت المدن ،و ضاقت أحوال ساكنيها ،عندئذ بدأت القلعة تفقد تدريجيا مكانتها السياسية على اعتبار أنّها عاصمة الدولة الحمادية[69]. ومع استمرار نشاط القبائل الهلالية بالمغرب الأوسط، واستفحال أمرهم هناك، وإحكام سيطرتهم عليه ،وتضييقهم على عاصمته القلعةلم يجد الناصر بن علناس بدًّا من البحث عن بديل لعاصمة دولته بإيجاد موضع أكثر حصانة منها، وفي منأى عن تأثيرات العرب الهلالية وأعمالها التخريبية، بعدما استحال عليه أمر ترويضها[70]. عندئذ اهتدى الناصر إلى موضع بجاية لبناء مدينته، الـــتي تكون العاصمة الثانية لدولته، باعتبارها ملجأً حصينا ضد الهلاليين ،و بُعدها عن مجال تحركاتهم نظرا لمـــا تحوزه مـــن إمكانات دفاعية في مقدّمتها موقعها الحصين، وبعدها عن القلعة، بحيث تفصلها عنها

حواجز جبلية تحول بين المدينة الجديدة (بجاية) وبين المناطق التي تصول وتجول بها خيل العرب الهلالية [71].

.....وعليه فقد بنى الناصر مدينة بجاية ،و انتقل إليها سنة661هــ/1068م[72]، واتخذها مستقرا له وعاصمة لدولته بعدما عمل على تعميرها، إذ شيّد القصور والحمامات والأبراج، وبنى الأساطيل والمراكب[73]، ونقل إليها السكان خاصة من مدينة القلعة، فأخذت بجاية مكانة القلعة كحاضرة للحماديين وعاصمة سياسية لدولتهم[74]. وهكذا لم تحض مدينة القلعة بمكانة العاصمة السياسية لدولة بني حماد سوى فترة قاربت ستة عقود مـــن الزمن لتغدو ذات دور سياسي ثانوي بعد انتقال السلطة الحمادية إلى مقرّها الجديد ببجاية .

.....و على الرغم من كون الانتقال الحمادي إلى مدينة بجاية يعدّ نتيجة حتمية لما آلت إليه الأوضاع في إقليم المغرب الأوسط في ظل النهب والإفساد والتخريب الهلالي للمدن والقرى والمنازل والزروع، إلا أن ذلك لا يعـــدّ السبب الوحيد لبناء الحماديين مدينة بجاية وانتقالهم إليها . فإذا كان ابن خلدون يعتبر التخريب الهلالي هو السبب الرئيس في ذلك حينما يورد سبب بناء بجاية قائلا : " وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وســـوء العـــذاب لوطء ساحاتها، والعيث في نواحيها ،و تخطّوا الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم، وصعوبة المسالك عليهـــا في الطريق إلى بجاية لمكان الأوعار، فاتخذ بجاية هذه معقلا، وصيّرها دار ملكه، وجدّد قصورها... "[75] فإن بين أيدينا نصوصا تاريخية أوردها المؤرخان ابن الأثير والنويري ،اللذان يشيران إلى أن بناء الناصر بجاية كان رغبة من هذا الأخير في إيجاد ميناء بحري حربي للدولة الحمادية، وكذا سعيه الحثيث للوقوف في وجه الدولة الزيرية، ناهيك عـــن طموحاته التوسعية على حساب أراضي هذه الأخيرة واقتحام عاصمتها المهدية [76].

.....فيذكر النويري حينما يورد الحادثة التاريخية التي أعقبت موقعة سبيبة بين الحماديين وبني زيري والمتعلقة بتفاصيل عملية الصلح التي تمت بين أبناء العمومة عندما أرسل تميم بن المعز رسوله محمد بن البعبع إلى الناصر بن علناس لعــقد الصلح بين الطرفين فأشار بن البعبع على الناصر وهما بالطريق في موضع بجاية كما جاء على لسان النويري "وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها ،وقد عبرت الآن ببجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء، وجميع ما يصلح لبناء مدينة فاجعلها لك مدينة، يكون فيها دار ملكك ،وتقرب من جميع بلاد إفريقية "(77). وهو ما يشير إليه أيضا ياقوت الحموي بقوله :"و أشار عليه ببناء بجاية ... وأراه المصلحة في ذلك التي تحصل له من الصناعة ،وكيد العدّو"(78).

.....وعلى هذا الأساس لا يمكن أن نغفل عن أطماع الناصر بن علناس التوسّعية، والطموح لإرساء قاعدة اقتصادية قوية تمكّنه من تحقيق أهدافه بإيجاد موضع أكثر حصانة من عاصمته الأولى مدينة القلعة، يكون على الضفة المطلّــة على حوض البحر الأبيض المتوسط لتوجيه أنظاره إلى الشريط الساحلي، وإحكام السيطرة على النشاط الاقتصادي المتمثل في تجارة ما وراء البحر .

.....هذا ويضاف إلى ذلك أن هناك من يرى أن أسباب انتقال السلطة الحمادية إلى بجاية لا تقتصر علـــى الأسباب السالفة الذكر بل تضاف إليها تلك المتعلقة بالاختلال الديموغرافي بين الساحل والداخل، وبين المدينة والريف والتي كان لها دور كبير في ذلك الانتقال ؛ ذلك أن اختناق القلعة بالسكان أوجد ظروفا أرغمت الناصر على البحث عــن مكان آخر يستوعب تلك الزيادة من جهة، وبعيد عن المجال الجغرافي لبني هلال من جهة أخرى(79).

.....و منه فلا شك أن لهذا التخريب الهلالي دورا ملحوظا في تراجع دور القلعة السياسي وانتقالـــه مـــن الدور الرئيس إلى الدور الثانوي، بحيث استمرّ في التراجع بشكل تدريجي تزامنا مع استمرار عيث القبائـــل الهلالية فســـادا بضواحي مدينة القلعة ،و غياب سلطة قوية بالمنطقة قادرة على كبح جمـــاح القوى الهلاليـــة المسيطرة على الإقليـــم والمتسببة في إحداث الفوضى والاضطرابات في نواحيه، وكفيلة بتوفير الأمن والاستقرار، بعد الفراغ الذي تركته السلطة الحمادية بعدما آثرت هذه الأخيرة الانتقال إلى مدينة بجاية .

- في المجال الاقتصادي والاجتماعي :

.....في ظل تراجع الدور السياسي لمدينة القلعة نتيجة أعمال التخريب التي ألحقها بنـــو هلال بالبنية العمرانية لهـــذه المدينة، وتزايد نشاطهم بضواحيها كان الوضع الاقتصادي لهذه المدينة يشهد هو الآخر اضطرابـــا ملحوظـــا بسبب سيطرة العرب الهلالية على المزارع وإفسادها ،وامتلاكها للأراضي المحيطة بالمدينة ،أين استأثروا بالبسائط والسهول[80] ،و هو ما أفضى إلى تقلّص الأراضي الزراعية، وانكماش مردود الإنتاج .كما ساهمت الفوضى والاضطرابات الـــتي أحدثها الهلاليون في دفع السكان إلى ترك أراضيهم ومزارعهم من حقول وبساتين وقصدوا المدن الحصينة للاحتمـــاء داخل أسوارها[81]، إذ كانت مدينة القلعة هي ملاذهم، بيد أنه وفي ظل عجزها عن توفير الحماية الكافية لسكـــان المدينة وضواحيها- جرّاء النشاط الهلالي المستمر- اتخذ السكان وجهة أخرى أكثر حصانة مـــن القلعة وأمانًا منهـــا فكانت مدينة بجاية هي الملجأ الحصين والمنيع .

.....ونتيجة لذلك أصبح النشاط الفلاحي لسكان القلعة يقتصر على الزراعة داخل أسوار المدينة ،والمناطق المجاورة لها ،والتي لا تصلها يد التخريب والإفساد الهلالي . عندئذ قلّ الإنتاج الزراعي، وأصبح لا يفي

احتياجات السكان، فعمّ الغلاء، وانتشرت المجاعات والأمراض في ظل انحصار المجال الجغرافي الصالح لممارسة النشاط الفلاحي[82] .

.....ولتأمين غذاء السكان اضطرّت السلطة الحمادية، وأصحاب التجارة ورؤوس الأموال إلى دفع إتاوات ضخمة لشيوخ القبائل الهلالية لشراء الأمن والهدوء، حتى بلغ الأمر بهم دفع نصف غلاتهم ومحاصيلهم الزراعية كضريبة عينية لأجل لذلك[83].

.....و بالموازاة مع قلة الإنتاج الزراعي عرف النشاط الصناعي تقهقرا كبيرا في الإنتاج بعدما هجرها أغلب الصناع وأصحاب الحرف إلى مدينة بجاية . ولم يكن حال النشاط التجاري يختلف كثيرا عن سابقيه (الزراعي والصناعي) ،ذلك أن فقدان الأمن في الطرق والمسالك التجارية عندما عزلت العرب المدن، وأحكمت سيطرتها على الطرق قد ، أفرز وضعًا مضطربًا نجم عنه ضعف الدور الذي كانت تلعبه مدينة القلعة كمركز تجاري هام، ومحطّ القوافل التجارية القادمة من الشرق أو الغرب، أو من الصحراء، والمحمّلة بالبضائع التي تساهم بشكل كبير في إنعاش الحياة الاقتصادية[84].

.....بيد أنّ تغيير هذه القوافل التجارية الطرق التي كانت تسلكها على غرار المارّ بمدينة القلعة إلى طرق أخرى أكثر أمناً وحظوةً بالحراسة تراجعت مكانة القلعة التجارية في منطقة المغرب بشكل عام، والأوسط على وجه الخصوص، بل وأخذ ذلك الدور في الاختفاء بشكل تدريجي بعدما كانت وريثة حضارة القيروان بعد خرابها. وكان ذلك التراجع لصالح العاصمة الحمادية الثانية مدينة بجاية، التي أخذت في التطور والازدهار نظير ما تملكه من إمكانات، وما تستقطبه جرّاء التوافد الإثنوغرافي إليها من القلعة[85].

- **في المجال الثقافي :**

.....إذا كان الخراب الذي أصاب مدن المغرب الأدنى على غرار مدينة القيروان من طرف القبائل الهلاليـــة قـــد لعب دورا بارزا في إنعاش الحياة الثقافية بحاضرة الحماديين الأولى، عندما استقطبت النخب العلمية القيروانية إليها ،فإن الخراب الذي لحق مدينة القلعة بعد الانتشار الهلالي بالمغرب الأوسط كان هو الآخر عاملا رئيساً - غير أنـــه هـــذه المرة- كان في تراجع دور المدينة الثقافي جرّاء التأثير السلبي الذي أثّر على المدينة إثر ذلك الانتشار ، حينمـــا لم تعـــد القلعة مقصدًا للعلم والعلماء وإنما أضحت تعرف نزيفا بشريا بشكل متواصل نحو مدينة بجاية ،فكان ذلك بداية النهاية لذلك الإشراق الثقافي الذي كانت ترفل به مدينة القلعة إلى ذلك الحين، وكانت بجاية هي المستفيد مـــن ذلـــك ،إذ غدت الوريث الشرعي لذلك الموروث الثقافي والبشري(86). غير أنّه لا يفوتنا الإشارة إلى أن القلعة لم تفقـــد أهميتها الثقافية بشكل مطلق على الرغم من الضغط المستمرّ للقبائل الهلالية عليها، واجتياحهم لها، كما سنشير إليه في خاتمة مقالنا هذا.

6- خراب القلعة بين الروايات التاريخية والمصنّفات الجغرافية :

-رأي ابن خلدون :

.....في ظل غياب المصادر التاريخية المعاصرة لأحداث الهجرة الهلالية لبلاد المغرب وما نجم عنها من أثـــار تبقـــى الكتابة التاريخية الصادرة عن البلاط الزيري(87) بالمهدية هي المورد الرئيس الذي تنـــهل منه الدراسات التاريخية الـــتي تؤرّخ للهجرة العربية الهلالية إلى أرض المغرب . وقد ربط مؤرّخو البلاط الزيري تراجع حضـــارة المغـــرب بالآثـــار الناجمة عن هذه الهجرة وعلى رأسها الخراب الذي ألحقته بمدنه . ولو رجعنا إلى ابن خلدون لوجدناه هـــو الآخـــر - على الرغم من أنه لم يكن شاهد عيان على تلك الأحداث، ولا قريبا من زمن حدوثها - يحمّل العرب

الهلاليـــة المسؤولية الكاملة في ذلك التراجع، وذلك من خلال جملة من النصوص التي أوردها في مواضع عدة من مؤلفاته .

.....ففي كتابه المقدمة – على سبيل المثال لا الحصر- يتكلم هذا المؤرّخ عن الهجرة الهلالية في صـــورة الغـــازي المدمّر والمخرّب ،إذ يقول :"و إفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرّسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا شهد بذلك آثار العمران من المعالم، وتماثيل البناء ،وشواهد القرى والمدن"[88].

.....كما ربط ابن خلدون أعمال التخريب الهلالي للمدن المغربية بطبع العرب المنافي للحضارة والعمارة، فهم على حـــدّ قوله ما دخـــلوا موطنـــا إلا وأسرع إليه الخراب . ويعلّل ذلك هذا المؤرّخ كون هؤلاء العرب أمّة وحشية استحكمت أسباب التوحش وعوائده ،فصار فيهم طبعا جبلوا على ذلك فأضحوا لا ينقادون لا لحكم، ولا تسوسهم سياسة، ولا ينطاعون لقوة ،فغلب عليهم سلوك الترحال والتغلّب على الأوطان، وذلك مناقض لأسباب الحضارة، وتطور العمران[89].

.....وما دام هؤلاء العرب –حسب ابن خلدون –لا يولون عناية بالعمران ،ولا يفقهون غايته فالحجر عندهم مثلا "إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك، والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه ،لذلك صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم[90] .

.....أمّا بخصوص التخريب الهلالي لمدينة القلعة فيذكر ابن خلدون تفاصيل ما أعقب موقعة سبيبة بعد هزيمة الناصر الذي " نجا إلى قسطنطينة (قسنطينة) ورياح في أتباعه،ثم لحق بالقلعة فنازلوها، وخربوا جنباتها ،و

أحبطوا عروشها ،وعاجوا على ما هنالك من الأمصار" ويضيف " وأظهروا في الأرض الفساد، وأزعجوا ساكنيها وعطفوا علـــى المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن، وأوحش من جوف العير"[91].

.....ومنه فقد أفاض ابن خلدون في سرد الأخبار المتعلقة بأثر الهجرة الهلالية إلى المغرب على عمرانه، ذلك أنه اتّهم العرب بأنهم لا يفقهون غاية العمارة وعندها يخربونها. كما أن ابن خلدون وقع في فـــخ المبالغة مـــن حيث تحميـــل الهلاليين كامل مسؤولية خراب عمران المغرب مع إغفال الأوضاع التي كانت تعرفها منطقة المغرب على غرار الصراع الحاد بين أبناء العمومة من بني زيري (الدولة الزيرية والحمادية) والتنافس فيما بينهم من أجـــل السيطرة والتوســـع على حساب بعضهما البعض، وما كان له من أثر سيء هو الآخر على عمران المدن . وحـــتى الصراع التقليـــدي القبلي بين قبيلتي صنهاجة (و نقصد بذلك دولة بني حماد) وزناتة في منطقة المغرب الأوسط أثّر كذلـــك سلبا علـــى الوضع في المنطقة، وساهم في أعمال التخريب . كما أوجد ظروفا مواتية استغلتها العرب الهلالية عندما أقدمت على تخريب عمران بعض مدن المغرب الأوسط كمدينة القلعة[92].

.....هذا ويضاف إليه أن ملوك بني حماد أيّام الانتشار الهلالي بإقليم المغرب الأوسط سارعوا لاتّخاذ العرب الهلاليـــة حليفا ونصيرا ضد أبناء عمومتهم من أسرة صنهاجة تلبية لرغباتهم التوسعية ،و طموحاتهم للانفراد بسيادة المغرب ،في الوقت الذي كان يجدر بهم العمل على تحقيق الوحدة والتحالف بين أفراد الأسرة الصنهاجية لوضع حدّ لنشاط القبائل الهلالية التخريبي ببلاد المغرب . وفي المقابل كان إدراك القبائل الهلالية للعلاقة السيئة بين ملوك بني زيري وبني حماد ،و لجوئهم للتحالف مع بطون قبائلها ضد بعضهما البعض هو ما شجّعها على أن تعيث فسادا بالعمـــران والزر

وع بحرية تامة في ظل غياب السلطة الحاكمة القادرة على أن تحول بينها وبين ذلك.

.....و بالإضافة إلى هذا الوضع السياسي المضطرب الذي كانت تعيشه منطقة المغرب الأوسط، كانت المدينة أيضـــا تتخبّط في أزمة اجتماعية واقتصادية حادة قبل الدخول الهلالي إلى المغرب نتيجة الاضطرابات السياسية والتي غذّتهـــا القبائل الهلالية بحيث ساهمت في زيادة حدة تلك الأزمة أين أثّرت بشكل كبير على حضارة المغرب الأوسط في عصره الوسيط خصوصا خلال القرن الخامس الهجري (11م) .

.....و في هذا الصدد يورد المؤرخ عبد الواحد المراكشي نصا حول حالة العمران بالمغربين الأوسط والأدنى قبـــل وبعد دخول الهلاليين المنطقة، والذي وقف على أن حالة العمران قبل الهجرة الهلالية لم تكن أحسن بكثـــير عمّـــا أضحت عليه بعد تلك الهجرة ؛ نظرا لطبيعة الأوضاع السائدة آنذاك، إذ يذكر :" أنّ أولئك العرب لم يبدؤوا خراب إفريقية وإنمّا أكملوه ،فقد كانت البلاد تتخرّب شيئا فشيئا من سنوات طويلة نتيجة للإهمال وسوء الإدارة من أواخر أيام الأغالبة...و هو عصر حروب وفتن...فلمّا جاء بنو هلال لم يهتمّوا بما وجدوه من بقايا العمران في المـــدن مثل القيروان وباجة لأنّهم كانوا أهل خيام . وقد أدّى إهمال بقايا مدن إفريقية والمغرب الأوسط إلى إتمام خراب هذه الأقاليم في أيامهم، فصارت بعد دخولهم فعلا بلادا مخرّبة في حاجة إلى من يعيد إليها عمرانها ورونقها[93]".

وإذا كان ابن خلدون عزى ما أصاب مدن المغرب بصفة عامة ومنه المغرب الأوسط من خراب لعمرانها، ومن تراجع لحضاراتها إلى العرب الهلالية فإنه في معرض حديثه عن القبائل الهلالية في أحد مواضع مصنفه العبر يشيد هـــذا المؤرخ بالدور البناء للإنسان الهلالي [94] . بحيث ساهمت الأسرة الهلالية في بناء الملك بالمغرب على غرار الأسرة المحلية الحاكمة. كما أورد

نصوصا تفيد بأن هناك مدنا مغربية قد تعرضت للتخريب على يد ملوك الدول المغربيـــة المحليـــة كمدينة نقاوس[95] على يد المعز بن باديس الزيري، أو القلعة الحمادية على يد الموحدين[96] .

.....و في هذا اعتراف ضمني من ابن خلدون من حيث لا يدري بأن السلوك التخريبي المنوط بالعرب حســبه لا يقتصر على العنصر الهلالي الدخيل إلى المنطقة ،بل ساهمت العناصر المحلية هي الأخرى في تخريب عمران بعض المـــدن ،وكذا في تراجع حضارة بلاد المغرب، بعدما كان ابن خلدون قد ربطه بالخراب الهلالي فحسب كما بيّنه[97].

- المصنفات الجغرافية :

- البكري، أبو عبيد الله (ت487هـ/1094م) :

.....و هذا الجغرافي هو صاحب مصنف المسالك والممالك الذي اكتسى أهمية كبيرة كونه غني بالمـــادة الخبريـــة المتعلقة بالمدن المغربية، وما زاد من أهميته هو دقّة الأوصاف التي أوردها صاحبه للمدن التي استعرضها ،ناهيك عن أنه زاوج بين المعلومات التاريخية والجغرافية . بيد أن هذا الجغرافي على الرغم من كونه عاصر أحداث الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب من حيث الفترة الزمنية إلا أنه لم يورد أي نص بخصوص تعرّض القلعة للتخريب الهلالي بعد موقعة سبيبة خلال سنة 457هـ/1065م عندما تطرّق لوصف مدينة القلعة، أو قلعة أبي طويل كما اصطلح عليها، علـــى غرار تطرّقه للخراب الذي أصاب مدينة القيروان من طرف بني هلال، في الوقت الذي اكتفى بالإشادة بالمكانة الاقتصادية والثقافية الهامة التي عرفتها القلعة عقب بنائها، واستفادة هذه الأخيرة من توافد العناصر البشرية القيروانية إليها –بعد خراب القيروان – من تجار وأهل العلم والمعرفة، حتى غدت مقصدهم من مختلف الأقطار[98].

- **صاحب مصنف الاستبصار في عجائب الأمصار :**

.....عاش هذا الجغرافي (المراكشي) خلال القرن السادس الهجري (12م) ، حيث زار بلاد المغــرب وسجّــل ملاحظاته ومشاهداته، من خلال ما ساقه من أوصاف للمدن المغربية، أين وقف على البعض من أثارها الباقية كما جاء في مصنفه . ومدينة القلعة من خلال وصفه " مدينة عظيمة ...كثيرة الزرع وجميع الخيرات وهي في جبل عظيم وهي حصينة منيعة لا تمكّن بقتال[99]". بيد أن هذا الجغرافي عندما يتطرق لوصف مدينة بجاية عاصمـــة الحماديـــين خلفا للقلعة يشير إلى أن سبب بنائها مردّه إلى إفساد العرب بمنطقة المغرب الأوسط ،و تضييقهم على بلاد بني حمـــاد بعدما عجز الناصر بن علناس عن مجابهتهم ولم يقدر على التصرف في بلاده، عندئذ طلب موضعا يبني فيه مدينـــة لا تلحقه فيها العرب، فاهتدى إلى موضع بجاية[100].

.....و من خلال هذا النص نقف على أن القلعة تراجع دورها السياسي والاقتصادي، وكذا الثقافي في ظل عجز السلطة الحمادية عن وضع حدّ للنشاط الهلالي بالمنطقة ما جعل حكامها يرومون موضعا بعيدا عن مجالها ،ونقل ملكهم إلى بجاية ،التي أضحت كما يصفها صاحب الاستبصار "مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها ،والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجنوب[101]".

- **الإدريسي، الشريف محمد بن عبد الله (ت560هـ/1166م) :**

.....حمل مصنفه نزهة المشتاق في اختراق الأفاق معلومات هامة عن المدن المغربية وأسواقها، والمسالك التجاريـــة ودروبها ومختلف أنشطة السكان وحرفهم، فتجلّت من خلاله جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى الجوانب الجغرافية لمنطقة المغرب .

.....و لو رجعنا إلى وصف الرحالة والجغرافي الإدريسي لمدينة القلعة قبل الهجرة الهلالية لوقفنا على مشهد لمدينـــة عُدّت من أعظم مدن المغرب الأوسط نظير حصانتها ،و مكانتها الاقتصادية والثقافية أيام كانت دار ملك بني حمـــاد، حينما كانت فيها " ذخائرهم مدخرة، وجميع أموالهم مختزنة ، و دار أسلحتهم، والحنطة تختزن بها، فتبقى العـــام والعامين لا يدخلها فساد ولا يعتريها تغيير، وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنســـان بالثمـــن اليسير... وفلاحتهم إذا كثرت أغنت، وإذا قلت كفّت، فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة[102]".

.....وعلى الرغم من أن الإدريسي لا يمدّنا بتفاصيل دقيقة عن مآل مدينة القلعة في زمانه، ومصير عمرانها بعدمـــا عرفته من خراب ومن هجرة لأغلب ساكنيها إثر ضغط العناصر الهلالية عليها ،إلى غاية سقوطها علـــى يـــد دولـــة الموحدين وصولا إلى وضعها في فترة حياته . إلا أنه حينما أفاض في وصف بجاية وما عرفته من تطور وازدهار أهّلها لإيواء ملك بني حماد بعدما غدت عاصمتهم الأولى ربط الإدريسي ذلك التطور ونمو العمران بخراب القلعـــة حاضرة بني حماد، عندما يشير إلى أن " مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد[103] ".

.....كما أشار الإدريسي أيضا إلى الدور الكبير الذي أضحت تلعبه مدينة بجاية في وقته كمـــا جـــاء علـــى لسانه "ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطـــة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافعة، وأهلها مياسير تجار وبها تحل الشدود وتبـــاع البضائـــع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالـــغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد والطيب موجودة وممكنة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة[104]".

.....و من خلال هذا النص يتجلّى لنا أن مدينة القلعة زمن الإدريسي غاب دورها السياسي والاقتصادي والثقافي، ولم يعد لها شأن يذكر، ففي الوقت الذي كانت بجاية تشهد نموا اقتصاديا وثقافيا ملحوظا كانت القلعة في المقابل تعرف منحناً عكسيًا تمثّل في التراجع والاندثار في ظل النزيف البشري وبُعد مقر السلطة الحمادية الحاكمة ،واستمرار عيث القبائل الهلالية في المنطقة ،حتى غدت في زمن الإدريسي نسيا منسيا لا أثر لمكانة حاضرة ازدهرت لقرابة قـــرن مـــن الزمن.

– ابن سعيد المغربي ،أبو الحسن علي بن موسى (ت685هـــ/1286م) :

.....لم يتطرّق هذا الجغرافي في كتابه الجغرافيا لوصف مدينة القلعة في زمانه إلى جانب المدن المغربية التي أورد نصوصا عدة بشأنها، من خلال الأجزاء التي قسّم وفقها منطقة المغرب واستعرض خلالها مواقع مدنها وما يحدّها من مختلــف جهاتها، على غرار مدن المغرب الأوسط ،و التي لم تنل القلعة حظها من ذلك الاهتمام الذي ربما يُعزى إلى الغيـــاب الكلي لدور مدينة القلعة في زمن هذا الجغرافي الذي عاش في القرن السابع الهجري (13م) مقارنة بالمـــدن الـــتي ذاع صيتها آنذاك على غرار مدينة بجاية ببلاد المغرب الأوسط. حيث اكتفى هذا الجغرافي بذكر مجالات العرب الهلالية وفي مقدمتها عرب رياح ،و ذلك في المناطق الواقعة بضواحي المسيلة ،إذ يذكر " والبـــلاد التي حـــولها مجالات لـــعرب رياح[105]".

.....و الحاصل فإنه ومن خلال ما عرضناه يتضح لنا أن مدينة القلعة قد فقدت مكانتها بشكل نهائي خلال القرنـــين السادس والسابع الهجريين (12–13م) ،بيد أنه لا يمكن ربطه بالتخريب الهلالي فحسب بـــل تضافرت جمـــلة مـــن العوامل كان من نتائجها اندثار حضارة القلعة وأفول نجمها . غير أن الجدير بالذكر أن إرهاصات ذلك الأفول وُلدت مع فترة تعرّضها للتخريب على يد بني هلال، حينها بدأت المدينة تعرف تراجعا تدريجيا لمكانتهـــا في مختلف مجالات الحياة دون

إغفال ذلك التفاوت في نسبة التراجع بين تلك المجالات سواء سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية.

.....ففي المجال السياسي يمكننا القول أنه على الرغم من وجود جملة من الدوافع التي شجّعت الناصر على الانتقـــال إلى بجاية وترك مدينته القلعة كنتيجة لموقعة سبيبة، والتي كان لها دور كبير في تراجع الدور السياسي الذي لعبته هذه المدينة كعاصمة للدولة لردح من الزمن ،فإنّ انتقاله إلى بجاية هو ومن تولى شؤون الدولة من بعـــده كان له الـــدور الأكبر في ذلك التراجع ،حينما غابت السلطة السياسية الحمادية بشكل ملفت للانتباه عن العاصمة الأولى مدينة القلعة، وهو ما أتاح الفرصة للقبائل العربية الهلالية لشنّ غارة على مدينة القلعة في فترة لاحقة – كما سبق ذكره– مستغلة الفراغ السياسي، والعسكري الذي تركه الحماديون في مدينتهم القلعة(106).

.....كما أن الدارس للأحداث التاريخية التي أعقبت موقعة سبيبة، وتعرّض القلعة للتخريب الهلالي يقف على أن انتقال الناصر الحمادي إلى مدينة بجاية سنة 461هـــ/1068م لا يعني انقطاعه عن عاصمته الأولى بشكل نهائي،بل بقي يتردد عليها من حين لآخر حتى وفاته سنة 481هـــ/1088م، فخلفه ابنه المنصور الحمادي (481–498هـــ /1089–1105م) ،الذي انتقل إلى بجاية بشكل نهائي سنة 483هـــ/1090م(107). وبذلك تكون مدينة القلعة قد حافظت على مكانتها السياسية كعاصمة ثانية للدولة الحمادية حتى وإن كان هذا الدور قد أخذ في الاختفاء تدريجيا منذ التخريب الهلالي الأول والثاني للمدينة، فالانتقال التام إلى العاصمة الجديدة، وما تبعه من تدهور للأوضاع الاقتصادية إلى غاية السيطرة التامة على الإقليم من طرف دولة الموحدين.

.....أما الحياة الثقافية وحتى لا نقع في فخ المبالغة نشير إلى أن القلعة لم تفقد مكانتها الثقافية بشـــكل نهائي بعـــد موقعة سبيبة وما نجم عنها بقدر ما حافظت على جزء كبير من ذلك الرصيد الفكري والحضاري الذي كانت تزخر به هذه

الحاضرة، إذا لم نغفل عن كون القلعة بقيت المورد الرئيس الذي يمدّ العاصمة بجاية برجال العلم والثقافة[108]، اللذين أسهموا بشكل ملحوظ في بناء الحياة العلمية البجائية. كما ساهمت القلعة في نقل موروثها الحضاري لوريثتها بجاية، في حين احتفظت هي بالدور الثانوي في اهتمام الملوك الحماديين[109] في الوقت لم تعرف العقم في إنجاب خيرة من العلماء وطلبة العلم ساهموا في إثراء الساحة العلمية لبجاية[110]منذ انتقال ملوك بني حماد إلى عاصمتهم الثانية بجاية بعد بنائها وإعمارها حتى سقوط هذه الأخيرة في يد دولة الموحدين، ثم من بعدها سقوط مدينة القلعة، والذي كان من نتائجه وضع حدّ لعمر الدولة الحمادية خلال سنة 547هـ /1152م بعدما عمّرت ما يقارب القــرن والنصف من الزمن.

.....كما أنه ممّا لا يفوتنا التطرّق إليه ولو بإيجاز في إطار دراسة التخريب الهلالي للقلعة الحمادية ،و ما آلت إليــه القلعة بعد ذلك التخريب من اضطرابات وفقدان الأمن بالطرق التجارية ،و من تراجع لدور المدينــة، هو دخــول الموحدين إلى المدينة بعد التمكين لدولتهم ،و ما ألحقوه من خراب بالقلعة، وما كان له هو الآخر من دور في تراجع دور القلعة، يضاف إلى ما سبق إن لم نقل هو الذي أتى على حضارتها بعدما خرّبوها، وحينما أهملوها فيما بعد.

.....فبعدما أيقن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي[111] أن وحدة دولته لا تكتمل إلا إذا توحّدت بلاد المغرب من المشرق إلى المغرب تحت راية الموحدين، قاد حملة كبيرة قصد بجاية، وذلك في صفر سنة سبع وأربعين وخمسمائــة للهجرة (1152م) حتى أدركها فحاصرها وضيّق عليها ،و تمكّن من دخولها وفرض سيطرته عليهــا دون أن يجــد صعوبة في اقتحامها[112]، وعلى الرغم من أن صنهاجة أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن المدينة بعدما حشــدت الجموع لذلك ،و قادت معركة قوية ضد الموحدين إلا أنها مُنيت بهزيمة نكــراء، حيث قُتلت أغلب عناصـــر الجيش الصنهاجي، ونُهبت أمواله، وسُبيت نساؤهم وذراريهم[113].

.....بيد أن الجيش الموحدي لم يكتف بهذا الانتصار بل قصد مدينة القلعة، التي فرّ أهاليها إلى رؤوس الجبال حينما أدركها الجيش فأقدم هذا الأخير على تخريب القلعة بعد اقتحامها عنوة، وأضرم النيران في مساكنها[114] . كما قتلوا رجال الحامية التي كانت تحرس المدينة، وأسر الكثير من أهلها ،وسبي حريمها، ونهب أموالهم وذخائرهم بها[115].

.....و عليه تتعرّض مدينة القلعة لأعمال تخريب لعمرانها وحرق لمساكنها تحت غطاء عملية الفتح الموحدي لبـــلاد المغرب وتوحيده تحت راية دولة الموحدين . وعندئذ أضحت القلعة تابعة لوالي بجاية الموحدي، الذي اكتفـــى بترك حامية للدفاع عنها وحراستها .ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة تفقد نسيجها العمراني شيئا فشيئا. وكان الموحدون قد وضعوا بذلك حدّا لمسار القلعة الحضاري ،حيث أتمّوا ما بدءه بنو هلال .ويقف شاعر الأسرة الحمادية أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي (ت628هــ/1230م) على ما آلت إليه القلعة بعد خرابها من خلال قصيدة شعرية نظمها في شأنها يقول في بيتين منها :

إن العروسين[116] لا رسم ولا طلل

فانظر ترى إلا السهل والجبل

وقصر بلارة أودى الزمان به[117]

فأين ما شاء منها السادة الأول[118] .

وهكذا كانت نهاية الحاضرة الحمادية، التي نعى خرابها الشعراء، وهجرها العلماء، بعد تعرّضها لهزات عدّة شكّلت مرحلة القطيعة بين فترة الازدهار الحضاري والعطاء الفكري وبين مرحلة الاندثار والتراجع والفناء.

خاتمة :

من خلال ما مرّ بنا يمكننا إيجاز العوامل الرئيسة في اندثار حضارة القلعة إلى جانب تعرضها للتخريب الهلالي فيما يلي :

– كان للانتشار الهلالي بمنطقة المغرب الأوسط وما نجم عنه من أعمال تخريب ونهب، وتضييق على مدينة القلعـــة عاصمة الحماديين دور كبير في رسم معالم بداية النهاية لذلك الإرث الحضاري الذي احتضنته مدينة القلعة لردح من الزمن .

– ترك انتقال الناصر بن علناس إلى العاصمة الجديدة بجاية فراغا سياسيا كبيرا ساهم بشكل أكـــبر في اختفـــاء الدور السياسي الذي لعبته القلعة كمحور أساسي في منطقة المغرب الأوسط .

– ساهمت الصراعات الداخلية بين عناصر الأسرة الصنهاجية (بنو حما ضد خلفاء باديس) في تفكيك روابط الوحدة المغربية لمواجهة الأخطار الخارجية ،في الوقت الذي كانت أحد الأسباب الرئيسة في تعرض القلعة التخريب بعد موقعة سبيبة.

– لعب الصراع القبلي دوره هو الآخر في زعزعة الاستقرار السياسي لمنطقة المغرب الأوسط ممثّلا في ذلك الصـــراع التقليدي المحتدم بين قبيلتي صنهاجة (بنو حماد) وقبيلة زناتة هذه الأخيرة خصوصا بقيادة فرعيها الكبيرين مغراوة وبنو يفرن، وهو ما ساهم إلى جانب ما ذكرنا سابقا في اضطراب الوضع الاقتصادي والاجتماعي وحتى الثقافي ،وكانت القلعة أحد المدن المتضررة من ذلك الوضع.

–كان دخول الموحدين مدينة القلعة وتخريبها،و وضع حد لعمر الدولة الحمادية بمثابة النهاية لهذه الحاضرة، عندما لم تأخذ نصيبا من اهتمام خلفاء الدولة الموحدية، الذين اكتفوا بتعيين عاملا لهم على بجاية وهو بدوره اكتفـــى بتـــرك حامية بالقلعة لحمايتها.

– وعلى الرغم من أن عامل التخريب الهلالي لمدينة القلعة كان أحد الأسباب الرئيسة في تدهور وأفول نجم المدينة إلا أنه لا يمكن إغفال عامل آخر في غاية الأهمية ألا وهو تغير المسالك والطرق التجارية التي كانت تمرّ

بمدينـــة القلعـــة ،حيث أن مرحلة عدم الاستقرار التي عرفتها منطقة المغرب الأوسط نتيجة كثرة الصراعات والحـــروب التي أفـــرزت فوضى واضطرابات كبيرة أفضت إلى ذلك التوجه الجديد ،والمتمثل في الاهتمام بمنطقة الســـاحل أين تتوفر إمكانات الحصانة والمناعة الطبيعية، وترك المدن الداخلية، التي آلت أوضاعها إلى التدهور والانحطاط ،في ظل بقائها مجـــالا خصبا للصراعات والاضطرابات في غياب السلطة السياسية الحاكمة في تلك المناطق بعد انتقالها .

الهوامش :

(1)– عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة ،دار ابن الهيثم ،القاهرة ،1426هـــ–2005م ،ص281

(2)–أحمد بن يحي البلاذري: فتوح البلدان، حققه وشرحه ،عبد الله الطباع وعمر الطباع ،(د.ط)،مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت،1407هـــ–1987م، ص273.

(3)–انتقد أيضا الجغرافي المقدسي هذا الموضع، أنظر: شمس الدين المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، علق عليه ووضع حواشيه ،محمد الضناوي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،1424هـــ–2004م،ص182.

(4)–ابن خلدون: المصدر السابق ،ص281.

(5)–أنظر أيضا: خالص الأشعث :المدينة العربية ،مؤسسة الخليج للطباعة ،الكويت ،1403هـــ–1986م،ص09.

(6)–ابن خلدون: المصدر السابق ،281.

(7)–هو حماد بن بلكين بن زيري، مؤسس الدولة الحمادية، توفي سنة 419هـــ/1029 م، أنظر : إسماعيل العربي : دولة بني حماد ملوك القلعة

وبجايـــة ،(د.ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1998م،ص 117.

(8)–يوسف جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9–10م)، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1992م،ص376.

(9)–عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ،ط2 ،دار الصحوة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1411هـ– 1999م ،ص91.

(10)–يتراوح عرضه بين 1،2و1،6متر ،أنظر :إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ملوك أشير –القلعة– بجاية–غرناطة–المهدية، دار الرائد العربي، بيروت ،1404هـ–1984م ،ص32.

(11)–أنظر: عبد الحليم عويس :المرجع السابق ،ص91–94. أما عند إسماعيل العربي فهي سبعة كيلو متر، أنظر : إسماعيل العربي : عواصم بـــني زيـــري ،ص32.

(12)–تقع هذه المدينة حاليا على الطريق بين بريكة والمسيلة، وتبعد عن المسيلة بمسافة 36كلم عبر الطريق المؤدي إلى المعاضيد، وقد صنفت خرائب هذه المدينة ضمن التراث العالمي لليونسكو .

(13)–يوسف جودت: المرجع السابق ،ص377.

(14) –الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،مج1 ،(د.ط)،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ،1414هـ–1994م،ص255.

(15)–محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مج 9، صححه، محمد الدقاق ،ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ–2003م، أحـــداث عام 547هـ .

(16)–عبد العزيز فيلالي:"قلعة بني حماد الحاضرة الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط خلال القرن 5هـ/11م "، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة ،1427هـ–2006م،ص225.

(17)–أنظر: يوسف جودت:المرجع السابق،ص371.

(18)–إسماعيل العربي: عواصم بني زيري،32–33 ،عبد الحليم عويس:المرجع السابق،ص93–94 .

(19)– عبد الرحمن ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار،(د.ط)،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،1421هـ–2000م،ص228.

(20)– عبد الله أبو عبيد البكري: المسالك والممالك ،مج 2،تح، جمال طلبة،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،1424هـ–2002م،ص226.

(21)–نتيجة تزايد العمران كان إلى جانب بيوت السكان مباني عظيمة كالقصور التي شيدها ملوك بني حماد على غرار قصر السلام، قصر الكوكب ،قصر المنار،أنظر: ابن خلدون: العبر، ج6،ص232.

(22)–المصدر نفسه،الجزء نفسه،ص228.

(23)–صالح بن قربة وآخرون: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954،الجزائر،2007،ص238.

(24)– البكري: المصدر السابق،مج2،ص226.

(25)–الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص255.

(26)–ابن خلدون: العبر،ج6،ص228.

(27)–الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص255.

(28)–ابن خلدون: العبر،ح6،ص228.

(29)–أنظر: ابن خلدون: العبر ج6،ص26.

(30)–أنظر: عبد الفتاح الغنيمي: موسوعة المغرب العربي،مج2،مكتبة مدبولي،القاهرة ،1414هـ–1994م،ص255.

(31)– ابن خلدون: العبر ج6،ص27.

(32)–رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها،(د.ط)،الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر،2007م،ص55.

(33)– ابن خلدون: العبر ج6،ص27،رشيد بورويبة: المرجع السابق،ص55.

(34)–أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق،مج8،ص372.

(35)–ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تح، ج س.كولان وإ.ليفي بروفنصال، ط3، دار الثقافة، بيروت ،لبنان ،1983،ص299.

(36)–شهاب الدين النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ،ج24 ،تح،عبد المجيد ترجيني،(د.ط)،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،(د.ت.ن)،ص123.

(37)–ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،تح،محمد شمام،(د.ط)،المكتبة العتيقة،(د.ت.ن)،ص86.

(38)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص27.

(39)– ابن الأثير: المصدر السابق،مج8،ص372،النويري: المصدر السابق، ج24،ص122.

(40)– النويري: المصدر السابق، ج24،ص122.

(41)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص27.

(42)– ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص299.

(43)– النويري: المصدر السابق، ج24،ص122.

(44)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص27.

(45)– المصدر نفسه،الجزء نفسه،ص27.

(46)– ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص299.

(47)– ابن الأثير: المصدر السابق،مج8،ص372، النويري: المصدر السابق، ج24،ص123.

(48)–إسماعيل العربي : دولة بني حماد،ص166.

(49)– النويري: المصدر السابق، ج24،ص123.

(50)– ابن الأثير: المصدر السابق،مج8،ص373.

(51)–إسماعيل العربي : دولة بني حماد،ص167.

(52)– على غرار ابن عذاري، النويري وابن الأثير الذين تطرقوا لهذه الموقعة وما أعقبها من خسائر بشرية دون التطرق إلى أعمال التخريب التي طـــالت جنبات المدينة من طرف القبائل الهلالية .

(53)– المصدر نفسه،الجزء نفسه،ص27.

(54)–حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت ،1412هــ–1992م،ص622.

(55)– الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص255.

(56)– النويري: المصدر السابق، ج24،ص120.

(57)– حسين مؤنس: المرجع السابق،مج1،ص622–623.

(58)–عبد الحليم عويس :المرجع السابق ،ص103.

(59)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص234–235.

(60)–إسماعيل العربي : دولة بني حماد،ص206.

(61)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص234–235.

(62)– عبد الحليم عويس :المرجع السابق ،ص98.

(63)–عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج1،(د.ط)،دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر،2010،ص371.

(64) – ابن خلدون: العبر،ح6،ص235.

(65)– أنظر: عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج1،ص371، وللمزيد أنظر:الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني

زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1،ترجمة، حمادي الساحلي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت ،لبنان 1992،ص382.

(66)–البكري: المصدر السابق،مج2،ص226.

(67)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص27.

(68)–صالح بعيزيق: بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، 1996،ص49.

(69)–علاوة عمارة: "الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة والتاريخ"،مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،العدد التاسع،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة،1429هـ–2008م،ص33.

(70)–مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ،نشر وتعليق،سعد زغلول عبد الحميد،ط2،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد,العراق،ودار النشر المغربية،الدار البيضاء، المغرب،1986،ص129.

(71)– صالح بعيزيق: المرجع السابق ،ص55.

(72)– عبد الحليم عويس :المرجع السابق ،ص103.

(73)– الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص260.

(74) ———*MARÇAIS Georges: Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris,p.*41 .

(75) – ابن خلدون: العبر،ح6،ص232.

(76) – ابن الأثير: المصدر السابق،مج8،ص373.

(77) – النويري: المصدر السابق، ج24،ص124.

(78)– ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله الرومي الحموي :معجم البلدان،مج1 ،(د.ط)، دار صادر، بيروت، 1397هـ–1977م،ص339.

(79)- مفتاح خلفات: « علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي »، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 10، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ-2009م،ص45.

(80)- ابن خلدون: العبر، ح6،ص232.

(81)- عبد الحميد خالدي: الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، (د.ط)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007،ص190-191.

(82)- مبارك بوطارن: «تطور العمران الإسلامي حواضر المغرب نموذجا»، أطروحة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005-2006،ص287.

(83) -المرجع نفسه ،ص287-288.

(84) - الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص261.

(85) - عبد الحميد خالدي: المرجع السابق ،ص191.

(86)- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار،نشر وتعليق،سعد زغلول عبد الحميد،ط2،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد,العراق،ودار النشر المغربية،الدار البيضاء، المغرب،1986،ص129.

(87)-وهي الكتابة التي أوردها المؤرخان ابن شرف القيرواني ،وابن أبي الصلت ،واللذان على روايتهما اعتمد أغلب المؤرخين اللذين أرّخوا للهجرة الهلالية (88)- ابن خلدون: المقدمة ،ص121.

(89)- المصدر نفسه،ص120.

(90) - المصدر نفسه،ص120.

(91) - ابن خلدون: العبر، ح6،ص27.

(92)- النويري: المصدر السابق، ج24،ص111.

(93)-عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تح، حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1997،ص110.

(94)– علاوة عمارة: «الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب»، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد10، جامعة الأمير عبد القادرللعوم الإسلامية، قسنطينة، 1430هـ–2009م،24.

(95)– تقع هذه المدينة على مرحلتين من مدينة طبنة، أنظر: البكري: المصدر السابق،مج2،ص 22.

(96)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص229–236.

(97))– ابن خلدون: المقدمة ،ص121.

(98)– البكري: المصدر السابق،مج2،ص226.

(99)– مجهول: المصدر السابق،ص167.

(100) – المصدر نفسه،ص129.

(101) – المصدر نفسه،ص129.

(102) –الشريف الإدريسي : المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، حققه، محمد صادق، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ،الجزائر،1983ص117.

(103) – الإدريسي: المصدر السابق،مج1،ص261.

(104) – المصدر نفسه،ص260.

(105)–غبن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا ،تحقيق وتعليق ،إسماعيل العربي ،المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ،1970،ص126.

(106)– ابن خلدون: العبر،ح6،ص234–235.

(107) – المصدر نفسه،ص232.

(108)– مفتاح خلفات: المرجع السابق ،ص49.

(109) –إسماعيل العربي: عواصم بني زيري،57.

(110) –علاوة عمارة: : المرجع السابق ،ص37.

(111)– تمت مبايعته سنة 524هـ/1129م على خلافة الدولة الموحدية ،أنظر : عبد الحليم الإيلاني: مفاخر البربر ،تح،عبد القادر بوباية، ط$_2$،دار أبي رقراق للطباعة والنشر ،الرباط ،2008،ص212.

(112) – ابن الأثير: المصدر السابق،مج$_9$،ص372.

(113)– ابن خلدون: العبر،ح$_6$،ص28.

(114) – ابن الأثير: المصدر السابق،مج$_9$،ص373،وللمزيد أنظر : ابن خلدون: العبر،ح$_6$،ص236.

(115)– النويري: المصدر السابق، ج$_{24}$،ص167.

(116)– العروسين قصر بناه الناصر الحمادي في مدينة القلعة.

(117)– الأبيات من البحر البسيط .

(118)– عبد الله التجاني: رحلة التجاني ،قدم لها ،حسن حسني عبد الوهاب ،(د.ط)،الدار العربية للكتاب ،ليبيا –تونس ،1981،ص116.